

فن الرسالة وأدب الرحالة

- قديماً في توات -

أ. فاطمة قاسمي

جامعة أدرار

الملخص:

توات هذا الإقليم الذي لجأ إليه العلماء والزهاد والصالحون منذ فجر التاريخ، فرارا بدينهم من القهر والتسلط إلى غياهب الصحراء، حيث الأمن والأمان، هذا الإقليم أنار قرائح العلماء فراحوا ينافسون نظراءهم المشاركة في مختلف العلوم والفنون، هذا الإقليم الذي فتق من عبقرية الشعراء فكتبوا في مختلف الأغراض الشعرية ومختلف الأوزان منها حتى ابتكروا وأبداعوا في هذا المجال.

Résumé :

Touat, cette région fréquentée par les universitaires et les ascètes, les vertueux depuis l'aube de l'histoire. Ils se sont échappés de leur religion à cause de l'oppression et du pouvoir des ténèbres du désert, où la sûreté et la sécurité. Cette région a redorés les savants afin qu'ils commencent à rivaliser avec les Orientaux leurs homologues dans les différentes sciences arts. Cette région que a fait naitre des génies et des poètes qui ont écrit dans les différents usages de la poésie jusqu'à ce qu'ils ont fait des créations dans ce domaine.

المقدمة:

إن منطقة توات عريقة في القدم، واغلة جذورها في التاريخ، فقد وردت آراء وأقوال حول تاريخ نشأتها وقدمها، واختلاف المؤرخون في أصل تسميتها، ولكنهم لم يختلفوا في كون البربر هم أول من سكن المنطقة، ثم انتقل إليها العرب مع الفتح الإسلامي أفواجا، فحملوا معهم الدين الإسلامي واللغة العربية التي صارت لسان السكان فأبدعوا بها وانكبوا على القرآن الكريم تلاوة ودراسة حتى فقهوا منه الكثير وراحوا يؤلفون ويكتبون.

ومما أبدعوا باللغة العربية فن النثر الذي وجد في المكتبات الأثرية التي تزخر بها المنطقة، ومن الألوان النثرية التي برعوا فيها الرسائل،

والخطابة، والوصايا التي كانت همزة الوصل بين السكان والدعاة والمصلحين كما هو الشأن بالنسبة لكل الشعوب، كما أبدعوا في أدب الرحلات أيضا.

وقبل الولوج في صلب الموضوع يتعين أن أقدم له بهاته الإطلالة، للحديث فيها عن الإشكالية، ثم أتطرق بعد هذا للتعريف بمنطقة توات، وآراء الباحثين والمستشرقين فيها.

إن الإشكالية التي يقوم عليها هذا البحث هي هل عرفت -فعلا- منطقة توات قديما فنونا نثرية، وإن وجدت، فكيف هو مستواها فنيا، هذا ما يسعى البحث الإجابة عنه وإثباته عبر هاته الخطة.

المطلب الأول: التعريف بإقليم توات.

المطلب الثاني: مفهوم النثر اللغوي والاصطلاحي.

المطلب الثالث: الرسائل.

المطلب الرابع: أدب الرحلات.

المطلب الخامس: الخصائص الفنية وفن الرسالة وأدب الرحالة وسماته.

الفرع الأول: الخصائص الفنية.

الفرع الثاني: سمات فن الرسالة وأدب الرحالة في توات.

المطلب الأول: التعريف بإقليم توات

رأى " محمد بن المبارك " أن كلمة توات أصلها أعجمي، فقد كانت قبائل من لمتونة جاءت إلى توات في منتصف القرن السادس الهجري (12م) فأطلق هذا اللفظ.¹

ويروي " ماندوفيل "MANDEFILLE عن اسم توات أنه من إطلاق الطوارق والعرب على مجموعة من الواحات التي تتواجد بالمنخفض العميق لواد الساورة وواد مسعود.²

كما يرى " روكليس "RECLUS ومضمون روايته ينطوي على أن أصل كلمة توات بربري معناه الواحة.³

ويرى الأستاذ بوساحة أن توات معناه الأماكن المنخفضة في اللهجة البربرية، ويمثل لذلك بقوله: " كلمة توات تطلق على الجزء الداخلي من جسم الإنسان والذي يقع تحت القفص الصدري " 4. ومن هذه الآراء والروايات المختلفة نميل إلى الرأي والرواية التي مفادها أن أصل التسمية بربري ونعلل لذلك بتسمية ج ل قصور توات التي هي تسميات غير عربية (بربرية)، فهي تبدأ بحرف التاء وقد تختم به كما هو الحال في تسابيت، وتوات.... وكذلك أن أصل السكان من البربر، والرواية القائلة بأنها الأراضي المنخفضة فعند قدومك إليها من جهة الشمال تجد نفسك تتحدر نحو الأسفل، وكذلك معظم القصور تقع في منخفضات الأودية، لملائمة أراضيها للزراعة. وصف الإقليم كثير من الرحالة والكتاب؛ فقد قال الوزان الفارسي في كتاب وصف إفريقيا: "تسابيت إقليم ما هو في صحراء نوميديا على بعد مائتين وخمسين ميلا شرق سجلماسة، ومائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور وقرى عديدة، سكانه فقراء، لا تنبت أراضيهم غير التمر وقليل من الشعير بشرتهم سمراء إلا أن نساءهم جميلات سمراوات " 5.

وعن تجورارين: قال " تيكورارين منطقة مأهولة في الصحراء نوميديا بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلا شرق تسابيت، حيث يوجد بها ما يقارب من خمسين

¹ فرج محمد فرج . إقليم توات بين القرنين 18 و19 . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط 1977 ص : 02 .

² -ينظر أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902 م ص: 11 .

³ -المرجع السابق . ص: 11.

⁴ -بوساحة . أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر . دار هومة الجزائر ط: 2002 م ص: 79.

⁵ حسن بن محمد الوزان الفارسي إفريقيا . ترجمة محمد حجي الأخضر . دار الغرب الإسلامي ببيروت لبنان . 1983 م 12 133 و

قصرا وأكثر من مائة بين حدائق النخيل وسكانها أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب بسلعهم لبلاد السودان ... يأكلون لحم الجمال ويستعملون في طعامهم الشحم الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ¹

ويضيف في ذات السياق : " وتدبير الشؤون بأيدي رؤساء الفرق وكثيرا ما يتقاتلون بينهم إلا أنهم لا يمسون الغرباء بسوء، ويؤدون عادة إتالة صغيرة للأعراب "2.

الملاحظ من خلال آراء وأقوال " الحسن الوزان " أنه ذكر تسابيت وتيكورارين وقد وصف كل منهما على حده رغم أنها من إقليم واحد، كما يلاحظ أنه وصف الأول بالفقر والثانية بالغنى كما ذكر بعض مظاهر الحياة فيهما؛ من وصف الأراضي والنساء والنخيل والطعام وشؤون السياسة ومعاملة الغرباء ووداعتهم معهم رغم الظروف التي يمرون بها.

أما الصورة التي رسمها " ابن بطوطة " عن توات تتمثل في قوله: " وقصدت السفر إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام بين تكد وتوت ... ودخلنا بودة وهي من أكبر قصور توات وأرضها رمال وسبخة وثمرها كثير ليس يطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإن أكبر أهلها التمر والجراد "3.

وقد استبدل اسم أدرار وتوات مع نهاية القرن الثالث عشر هـ (19م) وبداية القرن الرابع عشر؛ أي مع طلائع الاستعمار الفرنسي للمنطقة 1900م 4.

ومع مطلع القرن السابع الهجري (13م) هاجرت إلى الإقليم قبائل عربية بعد أحداث القرامطة بالبحرين والفاطميين بمصر، وقد كان لهم دور كبير في تثبيت اللغة العربية ونشر الإسلام، بالإضافة إلى تمصير المدن وبناء القرى وإعمار الصحراء 5

ويتضح من هذا أن القبائل العربية التي هاجرت إلى توات كان لها وقع إيجابي على المنطقة؛ إذ مكنت للغة العربية أن تتبوأ تلك المكانة التي

¹ حسن الوزان الفارسي . ص: 134.

² حسن بن محمد الوزان الفارسي وصف إفريقيا : ص 134.

³ ابن بطوطة تحفة الأنظار في غرائب دار بيروت للطباعة النشر . ط : 1980 م . ص : 699 و 700 .

⁴ ينظر الحاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات ... ص 35.

⁵ د- بوخلفة نور الهدى . محاضرة بعنوان : " استقرار العرب : إنشاء المدن والقرى في المغرب الوسيط " . نقلا من " التغيير الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور " مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة . جامعة منتوري قسنطينة . 2001م

ستأخذها في القرون القادمة، كما مكنت للدين الإسلامي من الانتشار في هذه الربوع الطيبة، كما حملت معها المدينة والعمران، فقد ظهر بعد هذا القرن في توات علماء حملوا لواء الإسلام إلى إفريقيا الغربية، وخلفوا آثارا مازالت حبيسة المكتبات الأثرية المنتشرة هنا وهناك في ربوع المنطقة، وذلك في مختلف الفنون والعلوم.

وبعد أن اعتنق أهالي توات الدين الإسلامي وصار الإسلام شريعة ومنهاجا وسلوكا وحضارة وصبغ كل شيء في توات بالصبغة الإسلامية من عادات وتقاليده وأعراف وغيرها فكلها إسلامية. عكف الناس على حفظ كتاب الله وتعربت ألسنتهم ونشطت الحركة العلمية والفقهية واللغوية فازدانت البلاد بالزوايا والمراكز العلمية التي انتشرت بربوعها. وقد كان ذلك حالها وحال أهلها كتب الله لها أن يعم الخير أرجاءها فكانت مقصدا للعلماء والزهاد والصالحين¹. وبذلك صارت توات مركز إشعاع علمي وإسلامي ليس في الجزائر فحسب بل حتى في إفريقيا. وازداد التواصل العلمي والمعرفي وتوسع وتكثفت معه أشكال التفاعل الحضاري ومن ثم انكبت النفوس على الدروس وراحت الأقلام تترجم الأحاسيس والمشاعر وتعبّر في دهشة وإعجاب عن واقع هذا التفاعل، ومن ثم كان هذا العمر الزاخر بالشعراء والأدباء في مختلف الفنون الأدبية والمؤلفين في شيء المجالات العلمية والمعرفية وكان ذلك كله في خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة².

المطلب الثاني: مفهوم النثر اللغوي والاصطلاحي

إن فني الرسالة والرحلة من الفنون النثرية المهمة في الأدب؛ لذا ينبغي الوقوف على ذلك المفهوم في اللغة والاصطلاح :

لغة جاء في مختار الصحاح للرازي (666 هـ) في مادة (ن ث ر) : نثرت من باب نصر (فانثرت) والاسم بالكسر . و(النثا) بالضم ما (تناثرت) من الشيء³.

وورد في لسان العرب عن ابن منظور (711 هـ \ 1312 م) في مادة (ن ث ر) : (ن ث ر) : النثر نثر الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر

¹ ينظر المرجع السابق . ص : 18 .

² ينظر أحمد أبا الصافي جعفري محمد بن أب المزمري (1160 هـ) حياته وأثاره . دار الكتاب العربي . ط : 01 . 1425 م . ص

13

³ ينظر الرازي مختار الصحاح . دار الكتاب العربي بيروت، ط: 03 . 1401 هـ \ 198 م . ص 645 .

الجوز واللوز والسكر... وقد نثر ولدا ونثر كلاما: أكثره، وقد نثرت ذا بطنها ونثرت بطنها....

من خلال ما ورد عن الرازي وابن منظور نجد أن الجذر اللغوي للمادة (ن ث ر) عن العالمين لهما مدلول واحد وهو بمعنى النشر والتفريق. فما هو مدلول المادة في اصطلاح أهل الاختصاص؟

يقول الدكتور شوقي ضيف (2005 م) : "النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف " 1 ويوصل كلامه عن النثر فيقول: " على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب وأما الضرب الثاني فهو الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة "

يلاحظ مما تقدم أن المعنيين اللغوي والاصطلاحي يكاد يكونان واحدا فلا نكاد نلمس فرقا بينهما ففي اللغة هو النشر والتفريق؛ أي كلام غير (منظم) وغير موزون وهو كذلك في الاصطلاح. إلا أننا نجده في الاصطلاح قسمين؛ قسم عادي وهو الذي لا يدرس ولا يهتم به لأنه كلام العامة ولا فنية ولا بلاغة فيه يستثنى منه ما جرى مجرى الأمثال والحكم. وقسم هو الذي يعنى به النقاد وهو الذي تتحقق فيه الفنية والبلاغة. وهذا القسم الأخير يقسمه النقاد إلى قسمين كبيرين؛ هما الخطابة والكتابة الفنية (النثر الفني). فهل كان لمنطقة توات حظ من هذا النثر بقسيمه أم أن قسما طغى على الآخر؟

هذا ما يتم البحث عنه في بطون المكتبات الأثرية المنتشرة في منطقة توات المترامية الأطراف، إلا أن هذا البحث سيقصر على ثلاث مكتبات أثرية فقط هي مكتبة كوسام، ومكتبة ملوكة، ومكتبة با عبد الله. لقد تم العثور على بعض المخطوطات في المكتبات الأثرية؛ ككتابات الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ \ 1505 م) وكتابات الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر (ت 1189 هـ)، والفقيه سيدي أحمد زروق البدوي الحضري (1244م)... إلخ

المطلب الثالث: الرسائل

¹ د . شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في النثر العربي دار المعارف بمصر ط. : 06 . ب ت ، ص : 15 .

² المرجع السابق ص : 15 .

دون شك أن في المنطقة كانت رسائل بين العلماء والفقهاء تحمل
 الأشواق والسلام والعلوم وغير ذلك ومنها تلك الرسائل التي كان يبحث بها
 الشيخ بن عبد الكريم المغيلي إلى العلماء في مختلف البلدان كليبيا وتونس
 والمغرب في قضية يهود توات الشهيرة، ومن بينها هذه الرسالة التي سماها "
 مصباح الأنوار في أصول الفلاح " وقد حققها الدكتور رابح بو نار عام
 1968م .وعلى الرغم من تخصص هذه الرسالة بيهود توات وتجبرهم على
 أهل المنطقة؛ فهي رسالة أخلاقية وفيها العديد من التوجيهات للحفاظ على
 الأخلاق الإسلامية والشخصية القومية ¹ . وهذه الرسالة مقسمة إلى ثلاثة
 فصول بين فيها موفقه من القضية كما أعطاها شرحا وافيا من وجهة نظره؛
 ففي الفصل الأول بين ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وقد
 استهله آيات قرآنية من سورتي النور والبقرة وأنشأ في ذلك أبياتا شعرية:

¹ ينظر مقدمة د رابح بونار (ابن عبد الكريم المغلي) مصباح الأرواح في أصول الفلاح . تج : رابح بونار : الشركة الوطنية للنشر
 والتوزيع الجزائر . ب ط 1968 م ص : 24 .

إذا قرب الإنسان أخيار قومه وأعرض عن إشرارهم فهو صالح
 إن قرب الإنسان أشرار قومه وأعرض عن أخيارهم فهو طالح
 وكل امرئ ينبيك عنه قرينه وذلك أمر في البرية واضح
 والحاصل أنه لا يقرب كافر من نفسه أو عياله، أو يستعمله في
 أعماله، ويجعله بيده شيئا من ماله، إلا من لا دين ولا عقل ولا مروءة " 1
 وفي الفصل الثاني بين ما يلزم على أهل الذمة من الجزية
 والصغار فقد بدأه بآية قرآنية من سورة التوبة وقال بعدها : " فهذا أمر وجوب
 من الله تعالى بقتل اليهود والنصارى، ولا يرفع السيف عن رقابهم إلا بشرط
 إعطائهم الجزية وصغارهم " 2. وبين في الفصل الثالث الأسباب التي دعت
 إلى

اتخاذ القرار المتعلق بقضية اليهود 3 وسماه في ما عليه يهود هذا
 الزمان في كثير الأوطان قائلا : أقول والله المستعان : لا شك في أن
 اليهود المذكورين كيهود توات وتيجورارين وتافيلالت ودرعة وكثير من
 الأوطان بإفريقيا وتلمسان، وقد استحلّت دماؤهم ونسائهم ولا ذمة لهم. 4
 وله رسائل أخرى في معظمها تتمحور حول قضية اليهود في توات.
 وأدبية الشيخ تبدو حلية في هذه الرسائل التي يبعث بها إلى كل مكان، ويبدو
 ذلك من خلال استعماله للكلمات، من ترادف وسجع وتناص ... قال: " فو
 الذي نفسي بيده لقتل يهودي واحد أعظم من غزوة في أرض المشركين.
 فاحذرهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، وانهبوا أموالهم واسبوا أولادهم ونساءهم في
 كل مكان حتى يذعنوا للأحكام الشرعية أتم الإذعان، إنما الجزية والصغار
 مقمعة لشر هؤلاء الأشرار، وسلاسل وأغلال يطوفون بها في سائر الأقطار
 على مرور الأعصار، إظهارا لشرف النبي المختار. فمن حاول فك شيء
 من تلك السلاسل والأغلال عن رقبة أحد من الكفار، فقد حاد الله ورسوله
 وستقلب في عنقه ويكتب معهم في النار ...وفي ذلك قلت :
 برئت للرب الودود من قرب أنصار اليهود

¹ المصدر نفسه . ص : 29 و 30 .

² المصدر نفسه . الصفحة نفسه

1 ينظر ابن عبد الكريم المغيلي . ص 45 .

2 ينظر ابن فقيه احمد تاريخ الشيخ ابن عبدالكريم المغلي وشجوته . مخطوط بمكتبة كوسام . ص : 16

وأكرموا دين اليهود

قوما أهانوا دينهم

وخبث أصل صنعهم ¹

يكفي الفتى من شينهم

وهذا نموذج من رسائل القرن الثاني عشر الهجري بين أحد الفقهاء والقضاة؛ فقد كاتب الفقيه سيدي أحمد زروق البدوي الجعفري ² (ت 1244 هـ) الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي ³ (ت 1244 هـ) مستغريا ومستفسرا عن سبب رد شهادته وهي على ما يبدو كانت ردا على رسالة سابقة بعث بها القاضي إليه ،وهذا نص الرسالة: " الحمد الله إلى الفقيه الرضى العلامة المرتضى سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان البلبالي ألف سلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى من اكتتفته دائرتك وخصوصا أبي فارس سيدي عبد العزيز أعزه الله وحرسه. وبعد فالإعلام لك بأني لست مفتيا ولا قاضيا بل ولا شاهدا ولا حريصا على شيء من هذه الخطط بل ولا أرتضي ذلك وأنا عائذ بالله ومستجير به بحرمة نبيه من جميعها لا لنفسها حاشا لله إذ هي من أرفع الخطط والرتب بل لما يعرض لمن ابتلى بشيء منها في عرضه الذي هو أعز الأشياء على العاقل. وما من صاحب خطة من هذه الخطط إلا هو هدف للقليل والقال ولا يسلم عرضه عند وضيع أو رفيع أو شريف أو مشروف ورحم الله القائل :

تسع أين منها أو لو الأحلام والهمم السنية وهي الشهادة والحكومة والتعرض للقضية وكذا الأمانة والرياسة والقبول للمرية ثم الوكالة والخصومة والوصية إلا بحال ضرورة تدعو لها مع حسن نية فسد الزمان وأهله إلا قليل في البرية

ولأجل هذا أقول بالله عليك ياسيدي الفقيه أخبرني لموجب ردك الشهادة مع قبولك لها سنين متطاوّل. أفسق طراً علي وشهدت به عياناً، أو أخبرك به شاهدان مبرزان، أم لما قدر الله وقضى ⁴

¹ ابن عبد الكريم المغلي مصباح الأرواح في أصول الفلاح ص : 53

² المصدر نفسه . ص : 60 و 61 .

³ هو الشيخ سيدي أحمد زروق بن عبد الله بن صابر البدوي الجعفري يكنى بأبي العباس كان إمام في الفقه وعالما وله شعر جيد) ينظر حاج أحمد الصديق التاريخ الثقافي لإقليم توات ص : 116 .

⁴ نص الرسالة مخطوطة في مكتبة با عياد الله أدرار .

المطلب الرابع: أدب الرحلات

وهذا النوع من الأدب خير من يمثله في إقيم توات قاطبة هو الرحلة
الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر¹ يذكر الشيخ باي بالعالم أن الشيخ
سيدي عبد الرحمان بن باعومر قام في حياته بأربع رحلات ودونها هو
بنفسه؛ فالرحلة الأولى كانت إلى تكرور² وكان برفقة شيخه الإمام سيدي
عمر بن محمد بن المصطفى الكنتي، والرحلة الثانية كانت إلى مدينة أوران
3 لطلب العلم، وكانت الرحلة الثالثة إلى سجلماسة من أجل العلم، أمام الر
حلة الرابعة فكانت لأداء فريضة الحج .

ومن رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر إلى سجلماسة هذا
المقتطف: " ذكر خروجنا من مسقط الرؤوس والوطن الذي تعطينا فيه
مدامة الشباب ألد كؤو س . أقول وبالله التوفيق إلى سراط المفعول والمنقول:
خرجنا من ديارنا بالزاوية يالزاوية حماها الله من الفتن والأغيار وجعلنا محط
الرحال الأفاضل والأخيار يوم الخميس ثاني القعد الثالث من سادس الشهور
والسنة المذكورة (1156 هـ) وتحينا يوم الخميس أغشاها للدعاء بالبركة فيه
الوارد في السنة المأثورة، وفق ذلك من السنة الشمسية السادس من عاشر
الشهور ونسأل الله خيرها وخير ما بعدها . و نعوذ به تعالى من جميع
الشرور، وقبل ذلك بنحو شهر كان ارتحالنا من القصبة المباركة التي سح
فيها علينا من النعم المفيلة⁴ غمامها وتفتح لنا عن أزاهير المسرات كمامها
قصبة سادتنا الشرفاء الذين طوقونا أياديهم تطويق الحمام، ووجدنا لديهم ما
تعاطى من المال على طرق التمام ... ويوم خرجنا من القصبة المذكورة
حرسها الله وحماها ... مررنا بقرب سادتنا

¹ هو عبد الرحمان بن عمر التواتي مولدا الأموي أصلا يلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في عيد مناف كان عالم عصره انتهت
إليه رئاسة الفقه بالديار الصحراوية كان كثير الترحال من أجل طلب العلم فأخذ عن عدد كبير من الشيوخ في عدد من البلدان بالمغرب
والمشرق كما كان له تلاميذ في كل مكان حل به وارتحل عنه بوفاته المذبة في الدطيار المصرية أثناء عودته من الحج في سنة
1189 هـ وهو القول الراجح (ينظر التاريخ الثقافي لإقليم توات ... ص : 87 و 88 و 89 . والشيخ باي بالعالم . الغصن الداني في
ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينيلالي . دار هومة . ص: 03 ومحمد عبد العزيز سيدي عمر كتاب قطف الزهرات من
أخبار علماء توات دار هومة . ص : 103)

² بلا تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب أهلها أشبه بالزواج (ياقوت الحموي البلدان . 1 \ 149)

³ بأرض مالي

⁴ من المفايلة . ويجوز ان يكون قالوا تعظموا وتقاتحوا فصاروا (ابن منظور لسان العرب . 11 \ 253) .

الأشراف الساكنين بتزنافت أدام الله حفظهم ورعاهم، وجعل فيما يرضاه سعيهم فتلقونا على عادتهم الكريمة بالبشاشة والترحيب وأوونا على فنائهم الرحيب ... ثم سرنا من عندهم فرحنا للرتب ونزلنا بأولاد عيسى عند آل مغفر لا زال جميلهم يشكر وسيئهم يغفر فأحسنوا الضيافة على عادتهم الجميلة جزاهم الله بنعمه الجزيلة. ورحلنا غدا فرحنا لزواية قطب السالكين ومأخذ الهالكين الصالح الصادق ... فأحسنوا ضيافتنا غاية الإحسان، وأمروا إلينا من البر ما يكمل عن وصفه اللسان جزاهم الله كل خير ووقاهم كل ضرر. ثم ارتحلنا غدا فرحنا لدارنا بالزواية الزينية حاطها الله من شرور الزمان، وأسبل عليها رداء العافية والأمان فأقمنا بها نحو شهر لقضاء بعض المآرب ومضامنة أحشاء من شق عليه فراقنا من الأصدقاء والأقارب، واجتماع الرفاق الوافدين عليها من الأفاق هذا ولما قضينا الأوطار، وحانت مفارقة الأوطان والأقطار، خرجنا من ديارنا في اليوم المذكور وجعلنا الله بفضل ذلك وسائر أعمالنا من السعي المشكور، وقد استعملنا ما وفقنا ربنا من الآداب الشرعية، والخصال الحميدة المرعية لله الحمد على الهداية ونسأله أن يحسن في النهاية كما أحسن في البداية وقد عن 1 لي أن أتحنف أهل الريانة ببعض آداب الحج والسير لعلمهم يجتنون منها إن شاء الله ثمار الظفر " 2 وذكر في رحلته تلك كل ما صادفه في طريقه من بلدان والحوادث التي تعرض لها الركب.

إن الرحالة الشيخ عبد الرحمان بن أبا عمر في هذه الرحلة كان يهدف إلى تصوير تلك الوقائع والأماكن التي يمر بها أثناء رحلته من بداية الرحلة إلى المكان الذي يقصده؛ وكان ذلك بطلب من أحد الأقارب ولولا هذا الطلب ما كنا لنسمع بهذه الرحلات - ربما - وما كانت لتكتب.

فالرحالة كان دقيقا في اختيار الكلمات والصيغ التي تؤدي هذا الغرض ألا وهو التصوير الدقيق فقد اختار من البداية صيغة الفعل الماضي للدلالة على الوقوع، وقد تكرر الفعل في الكثير من المرات (خرجنا، سرنا، رحنا، و جدنا...) (

¹ عن الشيء يعن ويعن عننا وعنونا : ظهر أمامك وعن يعن ويعن وعن عنونا واعتن : عرض . (لسان العرب 10 \ 310)

² مقتطف من الرحلة مخطوط بمكتبة ملوكة .

كما كان اختيار الجملة الفعلية لدلالاتها على الحركة والاضطراب والتقل - فقد كان الرحالة دائم التنقل من مكان إلى آخر - على الجملة الاسمية التي تدل عادة على الثبوت (أقول وبالله التوفيق، جعلنا محط الرحال ...، كان ارتحالنا.....).

كما أحسن الاختيار فقد أحسن التركيب أيضا وذلك ما حقق له العدول في الاستعمال ؛ ففي البداية استعمل صيغة المضارع ثم عدل عنها إلى الماضي (أقول خرجنا) كما نلاحظ العدول عن الضمير الفردي إلى الضمير الجمعي، ولاحظنا استعمال الضمير المتكلم الجمعي دلالة على وجود جماعة كانوا يشاركونه الرحلة إلا أنك تجده يعدل عنه إلى الضمير المتكلم الفردي من حين لآخر كلما دعت الضرورة لذلك.

وعلى هذا النحو واصل الرحالة وصف الطريق والمدن التي مر بها وصفا دقيقا كما أنه ذكر تفاصيل الهجوم الإنكليزي على مدينة الجزائر وما خلف فيها من دمار وخراب.

المطلب الخامس: الخصائص الفنية وفن الرسالة وأدب الرحالة

وسماته

الفرع الأول: الخصائص الفنية

إنه من الصعب أن نبحت عن الجانب الفني في هذا اللون من الأدب في هذه الربوع الطيبة وذلك لعدة اعتبارات منها:
أن هذه النصوص كانت تعبيراً عن طبيعتهم وبفطرتهم وسجيتهم فلم يعمدوا إلى الصنعة والتصنع، بل أرادوا بها تحقيق غاية من الغايات.
الأدب التواتي لم يجد الجو الملائم للإبداع الفني ؛ فهو لم يطلع على الإبداع الأجنبي الذي يتيح له التأثير كما هو الحال في المشرق العربي.
و مع هذا فقد حاولنا أن نجد بعضا الخصائص التي لا يخلو منها نص أدبي مهما كان لونه وجنسه ومن تلك الخصائص:

1-**اللغة والأسلوب:** إن معجمية الأديب التواتي تشكلت من محيط، بل فرضها عليها موروثه الثقافي والعالق بذهنه لأن اللغة مؤسسة اجتماعية؛ (1) فلغته لغة الزمن والمكان ولغة المجتمع ؛ أي أنها لغة واقعية(2) .

ومادام المجتمع التواتي مجتمع مسلم فقد كان لازماً على الأديب التواتي أن يتأثر أسلوبه ولغته بلغة القرآن الكريم وهذا ما لمسناه جلياً في لغة وأسلوب النماذج التي عرضت.

2- **التصوير:** كما نعلم أن التصوير يكتسي أهمية بالغة وتولييه الدراسات الحديثة في الأدب أهمية أبلغ؛ إذ تجعله مقياس حقيقي للتمييز بين الشعر الحقيقي والأجناس والفنون الأدبية الأخرى.(3) فلم تخل النصوص التي درست من التصوير الفني؛ حيث تم الوقوف على التشبيهات والاستعارات والتعابير المجازية...

3-**الصدق الفني والأخلاقي:** إذ ألاحظ على هذا الفن الأدبي في توات تأثره بالدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه؛ حيث يفرض على المسلم التزام الصدق في جميع أحواله ولا أستبعد هذا عن أولئك الأدباء الذين تم الإتيان بنماذج من أدبهم؛ إذ كل الفقهاء وفطاحل اطلعوا على الفقه الاسلامي

¹ على حد عيبر دي سوسير .

² ينظر ،الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الأغلبية والرسمية والإدرسية 30 هـ 230 هـ .العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر دط ،1994 ص 78.

³ ينظر، دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي . عبد القادر هني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، دط، 1995، ص 94

والتزموا به في حياتهم وأدبهم. والاهتمام بالمضمون الديني والأخلاقي في الأدب لا يعني البتة إهمال الجانب الفني فيه لأن إهمال هذا الجانب الفني في الأدب يؤدي إلى مساواته بغيره من أصناف الكلام الأخرى.(1)

4-التناص القرآني: التأثر بالقرآن الكريم كان جلياً في النص النثري التواتي؛ من أخذ آيتين أو مجموعة آيات، أو الأخذ بالمعنى، أو استعمال الألفاظ القرآنية، وهذا ليس غريباً على من تربى في المدارس القرآنية وتلقى علومه الأولى فيها حتى شب وشاخ على ذلك.

الفرع الثاني: سمات فن الرسالة وأدب الرحالة في توات

يتسم الأدب بكل فنونه وأجناسه بسمات تختلف من منطقة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر كذلك، لقد كان للنثر في توات سماته الخاصة به منها:

طول النفس فالكتابات المعثور عليها في معظمها تتسم بالطول.
كثرة الإستطراد بإيراد الترادف والتضاد والمحسنات أحياناً.
ألفاظ التعظيم والتوقير والاحلال وذلك يرجع إلى تواضع الكاتب وتوقيرهم لبعضهم البعض.
الذاتية؛ فالأديب التواتي يضيف على النص من تجربته الذاتية فيعبر عن واقعه مما يزيد من صدق الاحساس والمشاعر فيخرجه في صورة موحية مشوقة.(2)

الخاتمة :

وبعد هذه الجولة في قصور توات - من تملكوزة إلى تديكلت - إن صحت تسميتها كذلك فقد تم الخروج ببعض النتائج والملاحظات حول كتابة الرسالة وأدب الرحالة في هذه الربوع ومنها :

- الإهمال الذي أصاب الخزائن الأثرية مما أفقدها الكثير من النصوص والوثائق الأدبية والتاريخية وحتى الفقهية.

- إهمال الكتاب في الشمال لإقليم توات فذكر الإقليم في كتبهم قليل . عدم العثور على كتابات تتناول الإقليم قبل الفتح الإسلامي.

- تعريب الإقليم كان مع مجيء العرب بالدين الإسلامي.

¹ محمد عباس البشير الإبراهيمي . أدبيا ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ب ط، ب ت، ص 263.

² البشير الإبراهيمي أدبيا . ص 236

- القبائل التي جاءت إلى الإقليم التي توافدت على الإقليم كان لها الفضل في تمدنه وبنائه وتعميره وفتح مجالات الثقافة فيه .

- توات قديما عرفت مختلف الفنون النثرية مثل :الرسائل . أدب الرحلات، والتي تعد وثائق تاريخية، سياسية، اجتماعية ،و ثقافية ،تعبر عن المشهد الثقافي في منطقة توات .

بالإضافة إلى هذا ،فالشاعر التواتي عرف كيف يبدع في هاته الفنون، إذ نلاحظ فيها مظاهر مكثفة من الأساليب الفنية والإبداعية التي تفنن الشاعر التواتي في تقديمها للقارئ.

أولا المصادر

- 01 - رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن إدريس. مخطوط بمكتبة كوسام. مخطوط مكتوب بيد السيد الطيب شاري صاحب خزانة كوسام. نقلنا عن نسخة كتبت عام 1244م هـ .
- 02- رحلة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن أبا عומר. مخطوط بمكتبة ملوكة.
- 03- ابن عبد الكريم المغيلي مصباح الأرواح في أصول الفلاح. رابح بو نار ..الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ب ط 1968 م.
- 04- ابن فقيه أحمد. تاريخ الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي وشجرته. مخطوط بمكتبة ملوكة

ثانيا المرجع

- 05- أحمد أبا الصافي جعفري. محمد بن أب المزمري (1160هـ) حياته وأثاره دار الكتاب العربي ط : 01. 1425 م.
- 06 -أحمد العماري .توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 م إلى 1902 م منشورات كلية الاداب والعلوم الإنسانية بفاس .ط 01. 1408 هـ 1988م .
- 07- ابن بطوطة. تحفة الأنظار في غرائب الأمصادر .دار بيروت للطباعة النشر. ط: 1980 م
- 08-بوساحة. أصل أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر دار هومة الجزائر. ط : 2002 م .
- 09- الحاج أحمد الصديق. التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 إلى القرن 14 هـ \ 17 إلى 20 م ط 01. 2003 م .
- 10-حسن بن محمد الوزان الفارسي. وصف إفريقيا. ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر .دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان. 1983 م .
- 11-الرازي. مختار الصحاح دار الكتاب العربي. بيروت. ط: 1401.03 هـ \ 1981 م
- 12-شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف بمصر. ط: 06. ب ت
- 13- الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الأغلبية والرستمية والإدرسية 30هـ 230هـ .العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر دط ، 1994 .
- 14- دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي. عبد القا در هني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، دط، 1995.
- 15 -فرج محمود فرج إقليم توات بين القرنين 18 و 19 الملايين. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر ط. : 1977م.
- 16- محمد باي بالعالم. الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التينيلاني. دار هومة. الجزائر ب ط ب ت .

- 17- محمد عباس البشير الإبراهيمي. أدبيا ديوان المطبوعات الجامعية،
 وهران، ب ط، ب ت 18- ابن منظور لسان العرب. دار صادر. ط:
 03. 2004م.

المحاضرات :

- 19- بوخالفة نور الهدى. محاضرة بعنوان : " استقرار العرب وإنشاء المدن
 والقرى في المغرب الوسيط ". نقلا من " التغييرات الاجتماعية في البلدان
 المغاربية عبر العصور ". مخبر الدراسات التاريخية والفلسفة. جامعة منتوري
 قسنطينة. 2001م.
- 20- محمد باي بالعالم. محاضرة بعنوان : " التعريف ببعض الجوانب من
 منطقة توات وحضارتها ". القيت في أعمال المهرجان الثقافي الأول للتعريف
 بتاريخ منطقة أدرار. نقلا عن الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. ولاية
 أدرار 13 - 14 شعبان 1405 هـ - 4 ماي 1985م.

الوثائق :

- 21- جمعية الأبحاث التاريخية لولاية أدرار. دليل ولاية أدرار.

الكتب الإلكترونية :

- 22- ياقوت الحموي. معجم البلدان. موقع: www.alwarrad.com